الفصل الأول

نشأة معتقد التجسد وتطوره التاريخى كفلسفة إنسانية وموقف الديانات منه

التجسد عبر الحضارات

إن معتقد التجسد نشأ فى الفكر والعقيدة الإنسانية عامة منذ فجر التاريخ. فقد نشأت الديانات الشرقية بأقصى الشرق فى الهند والصين واليابان التى يدين معظم شعوبها بالبوذية أو الهندوسية أو البرهمية أو الكونفشيوسية، أو الزرادشتية، أو المانوية، على معتقد التجسد بصوره مختلفة. وقد ربط بعض الباحثين وعلماء التاريخ ذلك المعتقد ونشأته بحضارة الأطلنطس وهى تلك القارة الضخمة والتى سبق أن تحدثت عنها فى كتابى السابق عن الروح، وهى الجزيرة التى إختفت فى ظروف غامضة منذ عشرة الآف سنة قبل الميلاد تقريبًا.

وقد تنوع الإعتقاد بالتجسد فى المجتمعات الآسيوية، وأخذ صورًا ومذاهب متعددة وإختلط بالكثير من الخرافات التى إرتبطت بالكثير من الأساطير المحلية لشعوب هذه البلاد، وكم تحتوى هذه المعتقدات على غرائب ومفارقات لا يمكن أن أرجعها لأساس معتقد التجسد الذى نحن بصدد بحثه هنا، ولكن دعونا نبدأ بالبدايات الصحيحة المسجلة تاريخيًا بدون الدخول فى تاريخ الأساطير الشعبية المرتبطة بخصوصيات تلك المجتمعات ولنبدأ بتتبع تطور معتقد التجسد عند الفراعنة والإغريق.

الفراعنة ومعتقد التجسد

يذكر الأستاذ رؤوف عبيد الكاتب المتخصص فى علوم الروحانيات فى كتابه الهام عن التجسد أن هذا الإعتقاد وجد سبيله إلى معتقدات قدماء المصريين منذ

بدء الحضارة الفرعونية، فقد سجل أحد علماء الأثار المتخصص فى الحضارة الفرعونية (فونتان Fontane) نصًا فرعونيًا يرجع إلى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد عبارته كالآتى: «قبل الولادة عاش هذا الطفل وليس الموت نهايته. الحياة تجئ وتروح كالشمس عندما يبدأ نهارها من جديد».

كما تحوى ورقة بردى «أنانا Anana» التى ترجع إلى سنة ١٣٢٠ قبل الميلاد العبارة الآتية: «الإنسان يعود ثانية إلى الحياة عدة مرات، لكنه لا يذكر حيواته السابقة، إلا فى الحلم أحيانًا أو كفكرة مرتبطة بحادثة سابقة. ولا يمكنه أن يحدد زمان هذه الحادثة أو مكانها، لكنه يعلم فحسب إنها حادثة مألوفة عنده. وفى النهاية ستتكشف له كل حيواته المختلفة».

ويعتقد هيرودوت المؤرخ الإغريقى الذى عاش فى مصر فترة طويلة أن المصريين (فى عام ٤٥٠ قبل الميلاد) كانوا يتقبلون فكرة التجسدات للروح الإنسانية. ويذكر الأستاذ مصطفى الكيك فى كتابه «تناسخ الأرواح» ـ ١٩٧١: «وقدماء المصريين كما عرف عنهم دائمًا إنهم من أصحاب أقدم المعتقدات الدينية المتكاملة. فقد كانوا يؤمنون بأن ثمة حياة ثانية للإنسان فى عالم آخر، وإن الروح باقية إلى أن تعود إلى أجسادها عندما يحين الوقت الذى يستأنف فيه الميت حياته الثانية. وكان تقديرهم الزمنى للمدة الواقعة بين حدوث الموت والعودة إلى الحياة الثانية ثلاثة الآف عام تقريبًا.

وقد رأى المصرى القديم أن الروح لا تقضى هذه المدة الطويلة فى فراغ، ومال إلى الإعتقاد بأنها تستفيد من هذا الفراغ فى الإلمام بطائفة من المعلومات وألوان متعددة من المعرفة والخبرة التى تزخر بها مختلف ميادين الحياة فى عالم الحيوان بعد أن ألمت منها بما يختص به عالم الإنسان. ومن أجل ذلك تتجسد فى أجنة حيوانات الأرض والبحر والجو.

ولم يكن هذا التجسد على هذه الصورة مرتبطًا بحياتها الآدمية السابقة إرتباطًا جزائيًا، فلم يكن تجسدها فى أجنة الحيوانات العليا ثواب لها. أو فى أجنة حيوانات الدنيا عقاب لها، لأن جزاء الروح على ما أحسنت أو أساءت فى

العقيدة المصرية القديمة إنما يكون فى الحياة الثانية عندما يعود المتوفى إلى الحياة وبوابة الحساب أمام الآلهة لتقضى له أو عليه.

وبعد أن تستنفذ الروح أغراضها من رحلة المعرفة والعلم تعود إلى جسدها الآدمى لتحل فيه، وتستأنف به حياتها الثانية فى العالم الآخر، فإذا لم تجده كأن يكون قد تحلل واندثر، أو وجدته محنطًا ومحتفظًا بكيانه، ولكنه على حالته من الموات، فلم تستطع التلبس به إنصرفت عنه إلى جنين إنسان فحلت به لتستأنف به حياة أرضية جديدة.

ويعتقد الكثير من الباحثون أن الفراعنة كانوا من أوائل الشعوب الراقية التى آمنت بالتجسد، وبرهان ذلك عندهم كان فى طريقة دفن موتاهم. فالفراعنة دفنوا الأموات ووضعوا بجانبها كل إحتياجات المتوفى من المأكل والمشرب والأدوات الشخصية حتى إنهم وضعوا تماثيل لخدامهم، وكان فى إعتقادهم بأنه عند عودة الروح للمتوفى، سيجد الجميع بإنتظاره لخدمته. وكانوا يرسمون وجه الشخص المتوفى على التابوت بهدف تعرف الروح على جسدها لكى لا تلتصق بجسد آخر.

التجسد فى الحضارة الإغريقية

إنتقلت عقيدة التجسد إلى الإغريق عن طريق «فيريكيدس Ferikeydes» وتلميذه فيثاغورث الذى كان معاصرًا لبوذا معلم الهند ومؤسس الديانة البوذية. وقد وجد هذا الإعتقاد سبيله إلى الفلسفة الأغريقية وهى فى أوج إزدهارها، فلقى قبولًا واسعًا فيها. فمثلًا ممن إعتنق عقيدة العودة للتجسد فيثاغورث (٥٨٢ ـ ٥٠٦ قبل الميلاد). وقد عاش هذا الفيلسوف العالم عشرين عامًا من حياته فى مصر، وربما يكون قد إعتنق هذا المعتقد اثناء وجوده فى مصر، ولو أنه يقول أنه تجسد من قبل خمس مرات على الأرض وإنه كان يدعى فى تجسده السابق «أوفورباس»، وقد سار على نفس الدرب جميع الفيثاغوريين.

أما «سقراط» أبو الفلسفة الأغريقية (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م)، فقد قال عن التجسد:

«إذا كانت كل الأشياء التى من طبيعتها الحياة، أو تلك التى لها بعض صفات الحياة ينبغى أن تموت، وبعد أن تموت تظل باقية فى صورة الموت ولا تعود إلى الحياة مرة أخرى، فإن كل شىء سوف ينتهى إلى فناء، ولن يبقى شىء على قيد الحياة، فما هى النتيجة الأخرى التى يمكن أن تكون»؟؟

ثم تمسك «أفلاطون Plato» (٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م) بهذا الإعتقاد ووجد فيه ضالته المنشودة لتفسير عدة أمور تتوأم مع فلسفته القائمة على أساس أن النفوس والأرواح الموجودة فى الأجساد قد وجدت قبل وجود الأجساد فى عالم أسماه «عالم المثل أو عالم الحقيقة». وإن هذه النفوس كانت تدرك هناك المعانى الكلية التى لا صلة لها بالمادة، ثم حلت فى أجسادها كى تدرك الجزئيات المحسوسة فى عالم المادة عن طريق الحسية التى يمتلكها الجسد. وذكر أفلاطون أيضًا أن صلة الحياة بالموت لشديدة الشبه بتلك العلاقة التى توجد بين اليقظة والنوم. فكما أن المرء ينتقل من اليقظة إلى النوم ومن النوم إلى اليقظة، كذلك ينتقل من الحياة إلى الموت ومن الموت إلى الحياة.. والإنتقال من أحد الضدين إلى الآخر أمر لا مفر منه، إذ لو كان الإنتقال فى إتجاه واحد فقط لإختل التوازن فى الطبيعة. ويترتب على ذلك كما يقول أن تظل نفوس الموتى حية فى مكان خاص حتى تكون منبعًا ومبدأ لكل حياة جديدة. ولو لم يكن هناك إنتقال من الموت إلى الحياة. لإنتهى كل ما فى الوجود إلى العدم كما هى الحال تمامًا لو إستقر المرء فى قومه إلى ما لا نهاية.

وكان مفهوم التناسخ عند الفلاسفة الإغريق كأفلاطون وفيثاغورس وأفلوطين يتضمن إحتمال تقمص أرواح الأدميين لأجساد حيوانات، وهو ما يعبر عنه بالتناسخ فى مفهومه العام الذى يتقبل جميع الإحتمالات، كما عرف ولايزال معروفًا حتى الآن فى الشرق الأقصى. ولكن هذا الجانب الآخير ثبت الآن بعد البحث العلمى والفلسفى المستفيض أنه يمثل الجانب الأسطورى من هذا الإعتقاد، وهو الجانب الذى يثير بطبيعة الحال إعتراضات ضخمة من الناحيتين الفلسفية والعلمية معًا، ولا أعرف أن هناك باحثًا روحيًا واحدًا أمكنه أن يدافع عنه أو أن يتبناه.

وقد ذكر أفلاطون أن الروح أعرق من الجسد، وأن الأرواح تعود للولادة من جديد بلا توقف فى هذه الحياة. وروح الفيلسوف الحق تترفع عن المتع والرغبات بقدر الإمكان، وبالتالى تبعد عن الآلام والمخاوف، لأنها كنتيجة لتكوينها للآراء بنفس طريقة تكوينها للأجساد، يتعذر عليها الدخول إلى الجسم مادامت أصبحت فى حالة نقية. أما عندما تغادر الجسد ملوثة بشهواته فإنها سرعان ما تسقط من جديد إلى جسد آخر، وهكذا يمتنع عليها الوصول إلى كل ما هو مقدس ونقى متناسق.

أما بالنسبة لتذكر الروح لماضيها، فقد قال أفلاطون أن ما نعلم فى الواقع إلا تذكر النفس حالاتها السابقة التى كانت عليها قبل الوجود البصرى، وما قد تشاهده فى تلك الحياة السابقة ويجعل حياتها الراهنة أشبة الأشياء بالولادة. والنفس تبرز ما كان فيها كامنًا وفى جوهرها باطنًا. وإذا كانت النفس قد عاشت حياة سابقة فلا يمكن لتلك الحياة السابقة ألا تترك أثرًا فى النفس عندما تتصل بالجسم. ومن هنا كانت فكرة التذكر مرتبطة أشد الارتباط بفكرة الوجود السابق. هذا ونظرية المعرفة عند أفلاطون تضطر إضطرارًا إلى القول بالتذكر. فكيف تتم المعرفة بمعنى العلم إن لم يكن هناك تذكر لمعارف سابقة أدركها الإنسان فى حياته السابقة.

فالإنسان تبعًا لنظرية أفلاطون لا يبحث عن شىء يجهله كل الجهل، وإنما يبحث عن شىء لديه عنه بعض المعرفة السابقة، وهذه المعرفة السابقة عبارة عن تذكر للصور التى رأيناها فى عالم سابق تذكرها بمناسبة هذه الأشياء الحسية التى تظهر أمامنا، فمن ناحية نظرية المعرفة أيضًا لابد من القول بالتذكر.

أما بالنسبة لأول يونانى تكلم عن التجسد والتناسخ، فقد كان «برسيديس» (حوالى ٥٥٠ ق.م) أول معلم معروف للتقمص فى اليونان. وكان يعلم التناسخ وخلود الروح التى تعلمها من الكتب المقدسة للفينيقيين ومن الكلدانيين والمصريين وقد كان معلمًا للفيلسوف فيثاغورس.

التجسد فى المسيحية المبكرة

يبدو واضحًا للعيان أن المعرفة بقانونى «الكرما Karma» والتقمص أو التجسد "Reincarnation". كانت بالتأكيد موجودة فى عهد المسيح بل وكانت جزءًا من مادة التفكير المسيحى القديمة. ففى إنجيل متى، الإصحاح ١٧ : ١٢: على لسان السيد المسيح: «ولكنى أقول لكم أن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضًا سوف يتألم منهم» السؤال هنا كيف جاء إيليا النبى وبأى صورة؟، وفى إنجيل متى ١٣ ـ ١٤ : ١٦ «لما جاء يسوع إلى قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلًا من يقول الناس انى أنا ابن الإنسان. فقالوا، قوم يوحنا المعمدان وآخرون إيليا وآخرون أرميا أو واحد من الأنبياء» إنجيل يوحنا ٣: ٣. عندما سأله نيقودومس «فأجاب يسوع وقال له الحق أقول لك إن لم يولد أحد ثانية فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله». فى هذه الآية هناك نقاش، هل المقصود الولادة الثانية أى التقمص أم المقصود بالولادة الثانية هى المعمودية؟؟

والسؤال هنا كيف ضاع الإيمان بهذا المعتقد لاحقًا من اتباع المسيحية؟ إذا أردنا ـ تقديم إجابة عن هذا السؤال، علينا إذن البحث والتقصى فى تاريخ مفهوم التقمص والتجسد فى المسيحية المبكرة، وعلينا أن نكون على يقين من الحقيقة التالية والتى ذكرها الباحث الغربى «رونالد تسورر»، التى غالبًا ما يتم تناسيها إلى يومنا هذا: «لم تعرف المسيحية المبكرة، فى القرون الأولى التى تلت المسيح، تعاليم متينة تشبه، مثلا، تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، التى تعتبر قاعدة راسخة للمسيحية فى أيامنا الحاضرة».

كانت المخطوطات الأصلية للعهد الجديد تمثل بالدرجة الأولى، أساس الإعتقاد المسيحى ولكنها لم تكن تتضمن عرضًا ممنهجًا منظمًا لتعاليم دينية أو فلسفية من أى نوع، بل إقتصرت على قصص متناثرة متفرقة، فيها قليل من الجهد لإظهارها فى سياق زمنى مرتب تاريخيًا. أو على حوارات قصيرة أو رسائل إلى جانب ذلك، وقد عدت كتابات آباء الكنيسة ووعاظها أساسية وحاسمة، وهى كتابات عالجت موضوعات مختلفة ولكنها لم تكن متطابقة فى جميع النقاط.

لم تكن «الكنيسة» وقتئذ كمصطلح، تفهم بإعتبارها تنظيمًا أو مؤسسة متماسكة، بل كمجموعة أو جماعة غير مترابطة، ممن كانوا يسعون إلى فهم الرسالة التبشيرية للمسيح وحوارييه والحياة. والحقيقة الهامة أيضًا، دونما شك، هى أن المسيحية الأولى لم يكن فيها فصل بين كنيسة يونانية وأخرى رومانية، إذ أن جميع معلمى الكنيسة الكبار الأوائل نشأوا من حلقة الثقافة اليونانية، فصبغوا التعاليم المسيحية الناشئة بالطابع الإغريقى.

كان تطور التعاليم الكنيسة فى القرون الأولى بعد المسيح، تحدده أساسًا النظريات اللاهوتية التى وصفها علماء الكنسية الأوائل فى مجامعهم الكنيسة الخاصة. ولكن كلما كانت المسيحية فى القرون اللاحقة تقترب فى تطورها من شكل الدين العالمى، القوى اقتصاديًا وسياسيًا كان الكثير من الأفكار الأساسية الأصلية يمحى ويضيع منها شيئًا فشيئًا، وغالبًا ما كانت الأفكار العالمية الشمولية هى التى تحل محلها، ولو تعمدنا التلطيف فى صياغة العبارة، من الواضح للعيان أن البحوث اللاهوتية العميقة ستصل بنا حتمًا إلى المسيحية المبكرة، لأن المسيحيين الأوائل كانوا أقرب إلى المسيح زمنيًا أيضًا.

ولا ينكر مفهوم التجسد أو التقمص فى المسيحية بدون ذكر أكثر شخصيات المسيحية المبكرة تفوقًا ونفوذًا، شخصية «أوريجينس» الإسكندرانى (١٨٥ ـ ٢٤٥م). كان «أوريجينس» من أوائل العلماء الكبار المتبحرين فى الكتاب المقدس الذين عرفتهم المسيحية، بل ومن أعظمهم إطلاقًا. لقد كان عالمًا إكتسب ثقة الوسط الثقافى الإغريقى فى ذلك الوقت وإحترامه، وكان إلى ذلك، الوحيد الذى عرض فى قالب أدبى، تعاليم المسيحية على شكل منظومة فلسفية مستقلة، وعمد، لكى يضع مقولاته على أسس مقدسة، إلى وضع نسخة نصية شاملة للعهد القديم. هى (الهكابلا Hexupla) ـ بحيث أمكن له أن يجعل مقولاته وعلومه تستشهد دومًا بها. كان يجيد اللغة العبرية (لغة النصوص الأصلية للعهد القديم)، إلى جانب اللغة اليونانية، وقد تعلم فوق ذلك الأرامية (وهى لغة المسيح الأم) حتى يتمكن من قراءة النصوص باللغة الأصلية التى تكلمها المسيح شخصيًا والتى دونت بها حياته وتعاليمه.

يمكن لأوريجينيس، دون مبالغة، أن يوصف بأنه عالم موسوعى على مستوى العالم. إنه الشاهد على المعرفة المسيحية الرفيعة ومعلمها البارز. ومازالت تركته الدينية تمثل حتى القرن الحادى والعشرين أكثر إستدلالات الكتاب المقدس تنوعًا وعمقًا. كان أوريجينيس رئيسًا لمدرسة اللاهوت الشهيرة فى الأسكندرية، التى كانت فيها أكبر مكتبة فى العالم القديم، ضمن مجموعة من المخطوطات هى الأكثر تنوعًا فى عالم تلك الأيام، ويجمع الكثير من المختصين على أن العديد من نصوص «الفيدا» الأصلية باللغة السنسكريتية كانت توجد فى تلك المكتبة، لأنه فى ذلك الوقت ساد تبادل ثقافى وفلسفى نشط بين علماء الحضارة الإغريقية والفارسية والهندية.

وفى عام ٣٨٩م، قدر لهذه المكتبة الفائقة الأهمية أن تحترق وتأكل النار محتوياتها، لأن مسيحيًا متعصبًا هو البطريرك «ثيوفيلوس» عمد إلى إشعال النار فيها، وهكذا قضى بسبب هذه الفعلة الشنعاء، على معارف ثمينة لا تعوض، مما جعل البحث التاريخى اليوم أصعب وأعقد. ومن المهم الملاحظة أنه ما من أحد بين العلماء الذين أتوا بعد أوريجنس، إستنادًا إلى تلك الحقيقة، كانت تتوفر ظروف البحث العلمى التى توفرت لأوريجينيس، ولا حتى لهؤلاء الذين حاولوا فى وقت متأخر دحض تعاليمه وتفنيدها.

وبعد هذه المقدمة التاريخية اللازمة لموضوعنا الأصلى وهو التجسد فى المسيحية، وبإختصار إطلع أوريجينيس على مجمل الوثائق الأصلية المتوفرة عن المسيحية، سواء منها مخطوطات اليهود والإنجيليين أو رسائل الحواريين، وكذلك على المخطوطات التى توصف اليوم بأنها «منحولة Apokrypha»، وكانت لديه، إلى ذلك، معرفة معمقة بالفلسفات اليونانية والفارسية، وبفلسفة الفيدا أيضًا.

قرأ أوريجينيس نتاج «فيثاغورس» و«أفلاطون» و«أفلوطين» و«أمونيق بسكاس» الإسكندرانى (١٧٥ ـ ٢٤٢م) مؤسس مذهب الأفلاطونية الجديدة. وهذه المعرفة الشاملة فى مجال اللاهوت التى إمتلكها هذا العلامة الفريد جعلت

«ديمتريوس»، أسقف الأسكندرية آنذاك، يبعثه فى رحلات تبشيرية، لاسيما حين كان الأمر يتعلق بالتصدى للخلافات فى الرأى بين رجال اللاهوت، وحتى أوكل إلى أوريجينيس، كما ذكرنا، رئاسة مدرسة التعليم المسيحى المزدهرة، وعهد إليه بمهمة التدريس الكنسى فيها. و«ديمتريوس» هذا هو الأسقف نفسه الذى كان أول من ساق الإتهامات ضد علوم أوريجينيس «الضلالية» فيما بعد، ولم يكن تصرفه هذا يستند إلا إلى دافع الأنانية والغرور المرضى والحسد. فعندما إحتفل الأساقفة فى فلسطين (قيصرية Caeserea)، التى كان أوريجينيس يتوقف فيها مطولًا لغاياته التعليمية والإرشادية، بتكريس أوريجينيس (شيخًا Presbter) لمعرفته الزاخرة وقربه من القلوب، وجد ديمتريوس فى ذلك تعديًا على حقوقه، وإنتهز فرصة غياب الرجل لنزع الإعتراف بمشيخيته وإبعاده، وكان هذا فى العام ٢٣١م.

وربما كانت قضية أوريجينيس هذه أول مثال فى تاريخ الكنيسة على النزاع بين أحد علماء الكنيسة المستقلين وبين شخصية السلطة الكنسية التى تظلله وتعلوه. وهو أول مثال فى النظام التراتبى الكنسى على كفاح من أجل الحقيقة يواجه قتالًا من أجل تثبيت السلطة، ولكن للأسف، لم يكن الصراع الوحيد ولا الأخير.. ففى القرون اللاحقة، كيلت الإتهامات بالهرطقة والإلحاد، مرارًا وتكرارًا، لتعاليم هذا الرجل الذى يعتبر من أعظم علماء المسيحية، وهو الرجل الذى ما عرف زمانه خبيرًا بلغ شأنه أو إرتقى إلى رتبته.

بعد وفاة أوريجينيس، قام بعض علماء اللاهوت بحمل أفكاره وتبنيها، بحيث عمت النزاعات اللاهوتية حول تعاليمه، وإنتشرت، مع تعصب لا يمكن تخيله حتى فى عصرنا الحالى.

لقد كتب أوريجينيس أكثر من ٢٠٠٠ مخطوطة، ضاع للأسف قسم كبير منها. أما ما وصلنا من أعماله فلم يكن باللغة الأصلية التى كتبت فيها، بل هى الترجمة اللاتينية. وقد تم العثور فى مصر منذ عقود قليلة فقط على بعض المخطوطات الأصلية التى كتبها أوريجينيس والتى ظهر، بعد المقارنة، أنها تحمل، فى كثير

من المواضع الهامة صلة عميقة بين المسيحية والأفلاطونية الجديدة. وهو ما إعتبرته الكنيسة تجاوزًا كبيرًا، ووصف فى كتابه الأهم (المبادئ De Principils) العلاقة بين الرب والبشر (النفوس) كالعلاقة بين الشمس والأشعة الصادرة عنها، وهى مقارنة توجد، كما ذكر هو نفسه فى تعاليم الفيدا الهندية، ويقول أيضًا أن المسيح، كإبن لله، يقف كوسيط على مسافة واحدة من الرب والبشر. وقد علم أوريجينيس أيضًا أن مجمل الخلق، سواء منه العالم الروحى غير الفانى أو العالم المادى الجسمانى المحدود الآجل، قد خلقه الله، وإنه ليس ثمة جوهر أو معنى لم يستمد وجوده من ذات الله.

وقد علم أوريجينيس أيضًا أن الفروق الفردية بين الجوهر السماوى والأرضى السفلى لا تنشأ إلا فى حال استبعاد الرب، وأن علة هذه الحال وسببها يجب عدم البحث عنها فى الخالق، لكن فى جوهر الحياة بالذات، لأن سبب الإختلاف والتنوع بين المخلوقات الفردية يعود إلى حركاتها الذاتية التى تكون تارة أكبر نشاط وحيوية، وتارة أخرى أكثر تثاقلًا، بحسب ما يتميز به من فضيلة أو أثم، ولا يعود إلى إختلاف المعاملة التى يعاملها بها مدبر العالم.

يقول أوريجينيس أيضًا أن المادة هى علة صنع الجسم والحواس، فى حين يقال أن النفس هى علة إختبار اللذة والألم، والنفس، إذ تستقر فى المادة، تتمتع بالخواص المولودة من الطبيعة، والتعلق بهذه الخواص هو علة ولادتها فى أرحام صالحة وأخرى طالحة، والروح العلى، حتى حين يسكن فى هذا الجسم، يظل على تعاليه عن الطبيعة المادة، ولقد قيل فيه إنه الشاهد، المرشد، ومختبر (اللذة والآلم)، الذات العليا.

وبحسب أوريجينيس، فإن من يحدد المكان الذى يوجد فيه المعنى وفقًا لحركته الخاصة هو الإرادة الذاتية الحرة التى هى أعظم هبة وهبها له الخالق والتى تتمكن النفس عبرها من الإختيار بين أن تكون فى ركاب الرب أو ضده. فقد كتب أوريجينيس: «لقد كفل الرب للعقلاء الذين خلقهم حركاتهم الحرة التى تحددها إراداتهم، والتى بواسطتها ينشأ الخير الخاص فى داخلهم لأنهم

يصلونه بإرداتهم الخاصة، فالخمول والسأم الذى يطرأ على عزيمته المحافظة على الخير، والإبتعاد عن الصلاح وإهماله، هى ما يدفع إلى الإبتعاد عن الخير».

وقد إتفق معه بعض علماء الكنيسة أيضًا فى أن جميع المخلوقات العاقلة اللاجسمية وغير المرئية، إذا اسقطت فى الإهمال، تنزلق تدريجيًا وتنحط إلى الدركات السفلى، وتتخذ أجسامًا، بحسب موضع الدرك الذى انحدرت إليه ونوعه. فهى تكون فى البداية من الآثير، ثم من الهواء، وعندما تقترب من الأرض تحيط نفسها بأجسام أكثف، إلى أن تصير مغلولة ومقيدة باللحم البشرى، ويغير المرء جسمه على الأغلب مثلمًا يغير مقره عند الإنحطاط من السماء إلى الأرض.

يتبين لنا من كل هذه المقولات، سواء عن أوريجينيس أو من غيره من رجال اللاهوت والفلاسفة ومعلمى الكنيسة الأوائل، مثل جوستينانوس الشهيد (١٠٠ ـ ١٦٥)، وتتيانوس (القرن الثانى)، وكليمنصوس الإسكندرانى (١٥٠ ـ ٢١٤)، وسينيسيوس القيرينى (٣٧٠ ـ ٤١٣)، والقس أوغسطينوس (٣٥٤ ـ ٤٣٠)، ونميسيوس أسقف حمص (٤٠٠ ـ ٤٥٠)، أنهم أثبتوا وجهة النظر القائلة بأن نفوس البشر موجودة حتى قبل أن يوجد العالم المادى. فى عبارة أخرى، كان جميع هؤلاء المعلمين الكنسيين مقتنعين بفكرة أصبحت مثارًا للنزاع الفكرى فيما بعد، ونقصد فكرة الوجود السابق للنفوس، وهى كما ذكرنا، شرطهم لمعتقد التقمص والتجسد. وقد أقرها الإنجيل فى الفترة التالية منه: قال الرب لى: «قبل أن أصورك فى البطن إخترتك، وقبل أن تخرج من الرحم كرستك، وجعلتك نبيًا للأمم». ـ إرميا ١ : ٤ ـ ٥).

وفى كتابه المبادئ، تبنى أوريجينيس تبنيًا مباشرًا مبدأيى الكارما والتقمص، فقد قال مثلًا: «إذا أراد المرء أن يعلم كيف تكون النفس البشرية مطواعة للخير، فى آن، ومطواعة للشر فى آن آخر، عليه أن يفتش عن السبب فى الحياة التى سبقت الحياة الحالية. كل واحد منا يسعى إلى الكمال عبر تعاقب حيواته. إننا

ملزمون أن نعيش على الدوام حيوات جديدة وأفضل من سابقتها، سواء على الأرض أو فى عوالم آخرى. إن إندماجنا فى الله الذى ينقينا من كل سوء يعنى نهاية تكرار ولادتنا.

ويكتب فى موضوع آخر: نتيجة الإنجذاب نحو الشر، تتجه بعض النفوس أجسامًا تكون فى بداية الأمر بشرية، وبعد انصرام فترة حياتها البشرية تستبدل، بسبب شهواتها الحيوانية بأجسامها القديمة أجسام حيوانية، وتبدأ إنطلاقها بالهبوط إلى المستوى التالى، ثم تبدأ من حالاتها هذه بالعروج والإرتقاء فى الدرجات نفسها التى هبطت منها، عائدة إلى منازلها السابقة.

وبحسب أوريجينيس، يكمن فى النهاية مغزى الحياة بأسرها وغايتها ضمن العالم المادى فى تصفية النفوس وتطهيرها عبر العديد من التقمصات، حتى تقوى كلها فى نهاية المطاف، عبر إتباعها وصايا المسيح ومحبتها وإندماجها فى الله، على العودة من جديد إلى الملأ الربانى الخالد، فيقول: «لأن الرب لا يوجه النفوس ملتفتًا فقط إلى هذه الخمسين أو الستين عامًا، التى تعيشها على الأرض، بل إلى خلودها الأبدى، ولأنه صنع المادة الروحية غير فانية ومن ذاته شخصيًا. وأن النفوس العاقلة غير مستبعدة من عملية المعالجة، وكأنها تقتصر فقط على حياتها الأرضية. هذه العودة إلى الله يجب ألا يتخيلها المرء وكأنها حادث فجائى، بل مرحلى متدرج، يتحقق عبر أزمنة لا تحصى وغير محدودة فى طولها، بحيث تستوعبها عملية التحسين واحدًا إثر آخر. بعضهم يتعجل ويسرع فى الإرتقاء إلى الأعلى، وبعضهم يتقدم مسافات قصيرة، وبعضهم الآخر يغوص من جديد إلى الأسفل. وهكذا توجد مراتب لا حصر لها من المرتقين الذين إنتقلوا من الخصام مع الله إلى المصالحة معه. وفى النهاية، يقف العدو الأخير المسمى بالموت، الذى ستعمه الإبادة كذلك، ولن يعود ذاك عدوًا».

إنه لمن المؤسف أن مجمل المؤلفات التى تضم علوم أوريجينيس لا تتوفر لدينا بالكامل، ولا حتى فى نصها الأصلى، بل يجب ترقيعها وترميمها من كتابات الآخرين ممن كانوا، إلى حد ما، أعداء للرجل. وعلى الرغم من ذلك،

فإن الشهود على معرفته بأساسيات معتقد التقمص والتجسد كثيرون، لدرجة أننا نعجب اليوم كيف جرى، إلى يومنا هذا، تقديمهم كعديمى الأهمية، أو كيف غض الطرف عنهم!

فنجد هناك مثالًا على لجؤ مؤسسة الكنيسة المسيحية على مر الزمان إلى إقتطاع مادة الفكر الأصلية فى المسيحية وإلى اجتزائها، لكى تقيم بدلًا منها عمارتها التعليمية الخاصة الضيقة الأفق التى خلقتها هى بنفسها. لقد اقتطعت مؤسسة الكنيسة من الدين المسيحى أجزاء من المعرفة الأساسية عن العلاقات التى أعطت معنى لتعاليم المسيح الإنسانية، ومن بعد، إستبدلت بالأجزاء المنتزعة من هذا الأساس المتين عقائد مؤسسية أخلت بالمفهوم الأصلى للعقيدة المسيحية.

وعند البحث الدقيق فى هذه الأمور، تتضح أمام علماء التاريخ الحاليين مشكلة معقدة، فإنهم دائمًا يضطرون إلى كشف النقاب عن الخلفيات السياسية لذلك الزمن الأول للديانة المسيحية قبل البحث فى الأساس العقائدى للديانة. وموضوع التجسد والتقمص هو أحد تلك العقائد الفانية بفعل العوامل والخلافات والسياسة التى أخفت هذه العقيدة من الديانة المسيحية.

فإذا أراد المرء اليوم أن يحدد فيما إذا كانت المسيحية الأولى تشتمل على علم التقمص والتجسد، عليه أن يكشف النقاب عن الخلفيات السياسية لذلك الزمن، وقد قلنا سابقًا أن المسيحية المبكرة فى عصر أوريجينيس لم تكن تعرف بعد عقائد راسخة، ولم يكن قد فهم بعد من مصطلح «الكنيسة» تلك المؤسسة الصلبة، وكان تطور تعاليم الكنيسة يتحدد أساسًا بنظريات عقيدية أقرتها المؤتمرات والمجامع الكنسية.

عندما أصبحت المسيحية فى القرن الرابع الميلادى الدين الرسمى للدولة الرومانية، بدأت أول العقائد تخرج أعناقها. ومعروف أن ظهور هذه العقائد الكنسية لم يكن يعتمد نظامًا داخليًا، فهى لم تصبح حقائق عقائدية صالحة فى شكل عام، ولكن كمبادئ لصد المعتقدات التى لا تتماشى مع مصالح

الكنيسة والتى تحتم إعلانها كعقائد مضللة. فقد بدأ رسميًا بعد مجمع «نيقية Nicea» فى العام ٣٢٥م (وهو أول مؤتمر كبير فى تاريخ المسيحية)، وحتى قبل هذا التاريخ على أغلب الظن، «التنقيح المعروف»، أى تعديل المواضع غير المرغوبة أو غير المفهومة فى العهد الجديد. وقد فوضت السلطات الكنيسة إلى المصححين الذين عينتهم لهذا الغرض تصحيح النصوص المدونة ضمن السياق والمفهوم الذى يعتقده صاحب السلطة صحيحًا. ومن المحتمل حينذاك أن يكون قد جرى حذف العديد من المواضع المتعلقة بالتقمص والتجسد من العهد الجديد، ولم تتوقف هذه العملية فى المجامع المسكونية الثلاثة اللاحقة ـ أى مجمع القسطنطينية (٣٨١م)، ومجمع لإفسس (٤٣١م)، ومجمع خلقيدونية (٤٥١) ـ بل على العكس، فقد عملوا فى وضع أكبر، على إبراز المسيح بإعتباره مخلص عصرنا الوحيد. وزينوا لكل مسيحى حقيقى إن تحرره من موت الجسم المادى يكون حصرًا على المسيح وكنيسته، وتمت بذلك طبعًا إزاحة علوم التقمص والتجسد بشكل ملحوظ، فهى ليست صالحة للمسيحى الحقيقى من وجهة النظر الكنيسة ولم تعد مرغوبة، حتى حذفت نهائيًا من بعد فى المجمع المسكونى الخامس فى القسطنطينية عام (٥٥٣).

ولو قرأ المرء فى تمعن تاريخ المجامع المسكونية وظهور العقائد المسيحية المختلفة، لتوصل إلى إستنتاج مفاده أن هذا التاريخ صاحبه الكثير من النزاعات المريرة حول العقيدة بالدور القياسى للكنيسة وبتأثيرها. وبما أن الأمر فى نهاية المطاف، لم يكن يعدو كونه قرارًا سياسيًا يدور حول المفهوم والرأى الذى ينبغى فرضه، فإن علينا أن نستنتج أن هذه العقائد قد ترسبت فيها، بالدرجة الأولى، المصالح الكنسية. أما التفسير اللاحق حول مساهمة الروح القدس فى صياغة هذه العقائد، أو أن الله قد أوحى بها من عنده، فهو صعب التصديق فى ضوء هذه الظروف ولا يتقبله عاقل. ولا نجد أمامنا فى هذا المجال إلا أن نلاحظ بإنتباه عملية الإزاحة التى تعرضت لها علوم التقمص والتجسد والتى سوف ألخصها فيما يأتى.

نتيجة للكثير من الأسباب، التى جزء منها سياسى سلطوى والجزء الآخر

إنتفاعى بشرى، نشب الكثير من المجادلات اللاهوتية حول تعاليم أوريجينيس بعد موته، وعلى الأخص فى مجال الدينونة أو «علم الأشياء الأخروية». وبما أن أوريجينيس إعترف به فى كل مكان كشخص مميز فى الكنيسة القديمة، فإن المعرقة عن التقمص إرتبطت بإسمه أكثر فأكثر.

أخذت النزاعات والدسائس الكنسية الداخلية فيما يخص أوريجينيس تحتد فى القرون اللاحقة، وغدت الحاجة الملحة إلى إتخاذ قرار فيصل فى هذا الموضوع. وقد وقع فى منتصف القرن السادس حدث خطير، كانت عاقبتة إزاحة علم التقمص واستبعاده من المسيحية الرسمية المؤسساتية. ففى عام ٥٤٣م، جرى التداعى بضغط من القيصر الرومانى «جوستنيانوس الأول» (٥٢٧ ـ ٥٦٥) إلى عقد إجتماع للكنائس الشرقية، كان هدفه المعلن القضاء دفعة واحدة على جميع الفروق اللاهوتية المستمرة منذ ٣٠٠ عام وذات الصلة بتعاليم أوريجينيس. وقد فرض المجمع هذه التعاليم، دون أى إعتبار لموقف «فيجيليوس Vigilius» بابا الكنيسة الرومانية آنذاك، بتسعة محرمات، كان أولها الحرمان الحاسم المتعلق بفكرة التقمص وأسبقية وجود النفس، وقد نص على مايلى: لو أن أحدهم قال أو عبر عن أن النفس تسبق الوجود، باعتبارها جوهرًا خفيفًا أو قوى مقدسة أدركها السأم، ومن أجل معاقبتها انزلت إلى الأرض داخل أجسام تسجنها، فهو ملعون. وفوق ذلك لعنت الحرمانات التسعة هؤلاء الذين لا يعتقدون بالعقاب الأبدى الأليم المعد للجن وللبشر الذين لا رب لهم. وكانت جميع تلك الحرمانات مدفوعة بإيحاء من القيصر «جوستنيانوس»، الذى إعتبر نفسه السيد المطلق على الكنيسة، ومن زوجته صاحبة الدسائس «ثيودورا».

وحول هذا القيصر المريب، كتب المؤرخ «أوستروغوسكى» ما يلى فى فصل «تاريخ الدولة البيزنطية» من كتاب «المرجع فى علم القدماء (١٩٦٣)»: «بقى جوستنيانوس كمسيحى رومانى أيضًا، وكانت فكرة إستقلالية الوسط الدينى غريبة عنه تمامًا، فعامل الآباء والبطارقة بإعتبارهم عبيده. وكما أدار شئون الدولة، أدار أيضًا بالطريقة نفسها الحياة الكنسية، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة من القانون الكنسى إلا وتدخل فيها شخصيًا».

وعبر عن ذلك فى وضوح أكثر كل من «التنر و شتويبر» فى كتاب «الباترولوجيا»: «حياة أباء الكنيسة وكتابتهم وعلومهم (١٩٦٦)»: «حاول جوستنيانوس، عبر التسييس الإرهابى للاهوت، تكفير الرومانيين فى الماضى والحاضر، وكانت لديه طموحات لتلميع صورته ككاتب لاهوتى». وقد كتب «هرمان باور» فى عام ١٩٨٢ فى كتاب «تأثير روما الشرقية»: كان الأمر فى نظر جوستنيانوس أقل صعوبة، لأن البابا «فيجيليوس» المستقر فى روما أمل فى معونة القيصر العسكرية لمواجهة خطر القوط من الشرق. وكان، إلى جانب ذلك، دمية فى يد «ثيودورا»، زوجة القيصر، التى يعود إليها الفضل فى تسلمه منصب البابوية فى العام ٥٣٧م.

كانت شخصية القيصر وحالة الحرب العامة فى شرق الإمبراطورية الرومانية والخطر المحيق من جراء مواجهة جبهة دينية سياسية فى الداخل تتألف من مجموعات رجال الدين والرهبان فى فلسطين من أتباع أوريجينيس هى الأسباب التى قدمت المبرر والدافع السياسى لإستبعاد معتقد التقمص والتجسد من اللاهوت المسيحى. أما الدافع الآخر، فقد تمثل فى «ثيودورا» زوجة «جوستنيانوس» الطموحة والمحبة للسيطرة، التى كانت، بحسب ما قاله المؤرخ «بروكوبيوس» ابنة سائس دببة فى مسرح بيزنطة المكشوف، وبدأت كمحظية طريق صعودها إلى السيطرة على الإمبراطورية، وأمرت فيما بعد، بصفتها الإمبراطورة «الطاهرة العفيفة» بإساءة معاملة ٥٠٠ من بنات الهوى رفيقاتها فى الصنعة وتعذيبهم لكى تقطع صلتها تمامًا بماضيها المشين. وبما إنها، وفقًا، لقوانين «كرما» التى تبناها أورجينيس فى كتابه «المبادى» «وضد كلسيوم Contra Celsium»، سوف تكفر عن أفعالها المشينة فى حياتها اللاحقة. فقد سعت فى بساطة لدى القيصر إلى إبطال أية علوم عن العودة إلى الحياة، ولابد أنها كانت مقتنعة تمام الإقتناع بفاعلية هذا الإبطال، لو تم من خلال «قرار إلهى».

ما هى الدوافع المريبة التى تقف خلف حقيقة لعن تعاليم أوريجينيس فى مجمع الكنائس الشرقية فى القسطنطينية فى عام ٥٤٣م؟ لأن الحرمانات الرسمية مهرتها ووثقتها، بتأثير ضغط مستمر من القيصر، وبتوقيعات البطارقة

الحاضرين، وفى النهاية توقيع البابا نفسه، الذى استقدم كرهًا إلى القسطنطينية فى العام ٤٥٥م لهذه الغاية. وبهذه التوقيعات استطاعت الكنيسة، لأسباب دنيوية محضة، أن تضع أوريجينيس، أهم علماء اللاهوت فى المسيحية القديمة وأبرزهم، على نسق واحد مع الهراطقة والمضللين!

ولابد لنا أن نقبل بالتأكيد أن عواقب ذلك كانت تطهير وثائق الكنيسة، أكان ذلك استبعادًا أو تحريف، من كل ما يتعارض مع المبادئ العقيدية الكنسية، وعلى البحث التاريخى المعاصر أن يستدل على المواضع التى جرى إغفالها أو أسقاطها علنًا.

بعد عشر سنوات، أى فى عام ٥٥٣م، أدينت من جديد تعاليم أوريجينيس فى التقمص والتجسد وأسبقية النفس فى المؤتمر المسكونى الخامس فى القسطنطينية، وخرجت فى نهاية المجمع حرمانات تماثل فى محتواها الحرمانات القديمة، وبذلك أعلن رسميًا أن علم التقمص علم وثنى مضلل، جرى استبعاده شرعيًا. ومنذ ذلك التاريخ، حظر أشد الحظر على كل مسيحى مؤمن، مخلص للكنيسة، أن يعتقد بالتقمص. وهذا بطبيعة الحال، ما يؤمن به علميًا، إلى يومنا هذا، جميع مؤرخى الكنيسة والقسم الأعظم من المسيحية العالمية.

لقد سقط علم التقمص فى المسيحية القديمة فى العام ٥٥٣م ضحية غلطة وضحية العاقبة، لأن اللعن الوهمى لعلم التقمص يعود فقط، كما ذكرت آنفا، إلى رغبة سلطوية فردية موجهة شخصيًا من الإمبراطور البيزنطى. والأكثر إثارة فى هذا الموضوع أن ثمة أجزاء مهمة من وثائق المجمع المتعلقة بقضية أوريجينيس قد ضاعت، إما مصادفة وإما زورت لاحقًا لأية أسباب كانت، أو أنه لم يجر تداولها مطلقًا ـ وهو ما يرجحه المؤرخون ـ فى جلسات المجتمع الرسمية الثمانى المخصصة لموضوعات أوريجينيس، لأن الجلسات إهتمت فقط، كما يذكر بروتوكول المجمع بقصة «جمعية الرهبان الثلاثية»، أو العلماء الثلاثة الذين وصفهم جوستنيانوس بالملحدين، وأصدر قبل أربع سنوات مرسومًا ضدهم.

وعلى الرغم من أنه لم يتم التطرق إلى سيرة أوريجينيس علنًا، إلا أننا نجد اللعن التالى فى البند الحادى عشر من المجمع: «ملعون كل من لا يلعن جميع كتابات وتصنيفات أوريجينيس الملحدة وجميع الهراطقة الآخرين المغضوب عليهم من الكنيسة الرسولية والكاثوليكية المقدسة». ومن المعتقد أن يكون هذا اللعن الغريب قد قدمه جوستنيانوس قبل إفتتاح مؤتمر البطارقة الذين إحتاج لوجودهم للحصول على توقيعاتهم فقط. ومن المهم أيضًا أن البابا فيجيليوس لم يشارك فى أية جلسة من الجلسات على الرغم من أنه مثير للجدل لهذا السبب، لم يتصدر البابا المجمع كما هو مألوف، بل قام بترأس المجمع بطريرق القسطنطينية «أقطيضيوس»، الخادم المخلص للقيصر جوستنيانوس. واللافت أيضًا أنه لم يسمح سوى لبعض أساقفة البلدان الغربية بالحضور من أصل ١٦٥ أسقف حضروا المجمع، بينما رفض الأساقفة الآخرون أن يشاركوا فى ظل تلك الظروف. وكان هذا يعنى أن مجمع القسطنطينية كان، علميًا، اجتماعيًا، شخصيًا خاصًا بالقيصر جوستنيانوس، قام به مع الموالين له، وقد تحدوا فى ذلك إحتجاج البابا وأساقفة الكنيسة الرومانية بتحريم علم الوجود المسبق للنفس وإقصائه، وبذلك سحبت من العلم المسيحى القديم قاعدته التى نشأ عليها. وبسبب حقيقة رفض البابا فيجيليوس المشاركة فى المجمع، فإن بعض العلماء الكاثوليك المتفتحين بدؤوا من جديد يشكون فيما إذا كانت للمجمع نفسه وقراراته أصلًا صلاحية التطبيق على الكاثوليك، أو بكلمات أخرى، فيما لو كانت تعاليم التقمص لا تزال، كما كانت سابقًا، جزءًا من مادة التفكير المسيحى.

إختتم المجمع الذى إستغرق ٤ أسابيع أعماله، ولكن البابا فيجيلوس لم يضع توقيعه إلا بعدها بشهور بعد تعرضه لضغوط لا هوادة فيها من القيصر، ولخشيته من القتل أو الإغتيال أو من تعيين أحد معارضيه فى منصبه، وذلك دون أن تكون لديه معلومات مسبقة عما ضد أوريجينيوس. لقد كتب رودلف باسيان فى كتابه «الولادة من جديد: حياة أم حيوات؟» فى الصفحة ٢٢٣ منه: «مجمل القول أن القضية كانت مشبوهة إلى أبعد الدرجات، لا أثر للمشروعية فيها. وننصح لمن يريد أن يطلع بإختصار على الطريقة التى كانت تحسم بها

الخلافات العقائدية فى المجامع المسكونية الخمسة الأولى بالرجوع إلى مقال روبرت كيل بعنوان «روح قدس خاص». فقد طلب كيل من الكنائس، لو أرادت أن تستعيد مصداقيتها من جديد، أن تنأى بنفسها عن هذه المجامع المسكونية وعن قرارتها التى إتخذت تحت عباءة الرعب والدسائس. لم تراجع الكنيسة هذا الحرمان المشبوه من القيصر بعد ٣٠٠ عامًا على وفاة أوريجينيس، ولم تعد النظرية فيه، بل على العكس، فقد ترسخ تدريجيًا فى فكر الكنيسة الإقتناع بأن اللعن جزء من مقررات المجمع الملزمة لها، على الرغم من كل الأقوال المتناقضة ابان هذه القرون المنصرمة. وتتبقى حقيقة أن هذا التحريم الظالم لمعتقد التقمص والتجسد ـ لو فحصنا الأمر بدقة أكثر ـ ليس أكثر من غلطة تاريخية لا تملك أيه صلاحية مسكونية، ولو عبرنا عن الفكرة تعبيرًا مغايرًا لأمكن لنا القول، ليس أمام المسيحيين أى مانع رسمى يحظر عليهم الإعتقاد بالتقمص. التقمص ليس غريبًا عن المسيحية، فكيف به عن الكنيسة؟ لكن علوم التقمص أدينت مجددًا، بأقصى درجة من الحدة والتشنج، فى مؤتمر ليون (١٢٧٤م)، وفى مؤتمر فلورنسا (١٤٣٩م)، كما لوحق أتباع هذه العلوم، بلا كلل ودون رحمة، وغالبًا ما تم إعدامهم. وليس أدل على ذلك من مأساة العلامة الإيطالى والراهب الدومنكانى «جيوردانو برونو» (١٥٤٨ ـ ١٦٠٠)، الذى قدم إلى محكمة التفتيش الكنسية فى العام ١٥٩٢م بسبب معتقداته الفلسفية الخاصة حول إرتحال النفوس، فحكم عليه فى النهاية بالموت حرقًا بعد فترة طويلة قضاها فى الاعتقال، وأحرق علنًا فى عام ١٦٠٠ فوق كومة ضخمة من الحطب فى روما. وعن أسباب هذه الممارسات، قالوا: أن فكرة التقمص تتناقض مع مختلف العقائد المسيحية عن الحياة الأخروية، كقيامة الجسد مثلًا، أو تتناقض مع المبادئ المسيحية، لأن الفصل بين شقاء الإنسان وسعادته يكون فى هذا العمر الأرضى الوحيد الذى نعيشه والذى تنتقل النفس بعده مباشرة إلى النعيم الأبدى أو إلى الجحيم الأبدى. وهى، إلى ذلك، تتضمن الأراء التى أدانتها الكنيسة مثل «إستقلال النفس عن الجسد»، أو أسبقيه النفس على الجسد. Anima Separuta.

وقد شرح الدكتور رؤوف عبيد فى كتابه القيم «فى العودة للتجسد» سر هذه المقاومة الضخمة من رجال الاعتقاد المسيحى لمعتقد التجسد وأقتبس منه هنا: «ومع كل الإعتبارات الواضحة لماذا إذا وجدت عقيدة العودة للتجسد كل هذه المقاومة الضخمة من السواد الأعظم من رجال الإعتقاد، أو بالأدق من «أرباب المذاهب؟» لا ريب أن هذه المقاومة لا ترجع إلى قرار مجمع القسطنطينية فقط، الذى طالما أهدرت قرارات صريحة له فى أمور كثيرة. بل ترجع بالأكثر إلى إعتبارات معينة يمكن أن يسلم بها بسهولة كل عارف لطبائع بنى البشر، ومقدر لحقيقة نوازعهم ومن هذه الإعتبارات مايلى:

أولًا: أن إنكار هذه العقيدة يكفل «أرباب المذاهب» المزيد من الهيمنة على قلوب البشر، لأن التلويح بالنار الأبدية قد تنتظرهم بعد الموت مباشرة مختلف تمامًا فى وقعه على النفوس عن التلويح بمجرد التطور نحو ما هو أسمى وأفضل عن طريق إحتمال العودة المتكررة للتجسد. ففى الحالة الأولى من السهل التلويح بالغفران الذى بمقدورهم أن يمنحوه للمؤمنين، أما فى الحالة الثانية فإنه إن كان ثمة غفران فهو منحة التطور الطبيعى لصاحبه لا منحه من أحد البشر. وما قصة صكوك الغفران التى كانت تباع فى القرون الوسطى عدًا ونقدًا بعيدة عن الأذهان . وقد كانت هذه القصة وراء الثورة العارمة التى أعلنها مارتن لوثر، وتمثل الصكوك إنحرافًا جليًا باسم الإعتقاد. وأخشى أن يكون هذا الإنحراف لا يزال قائمًا ـ ولو على وجه ما ـ وإن إختلفت الأشكال وذلك فى انحاء كثيرة من الأرض.

ثانيًا: إن التسليم بهذه العقيدة يفتح الباب واسعًا لتدخل مفاهيم العلم والفلسفة. ولا ريب أن آفاق رجل الاعتقاد خصوصًا فى العصور الأولى والوسطى ما كانت لتتسع للسماح بمثل هذا التدخل الذى قد يتهدد أيضًا قوة سلطانه الشخصى على النفوس، هذا السلطان الذى يحرص عليه رجل الإعتقاد كل الحرص بطبيعة الحال بوصفه حقًا له

خالصًا، لا يصح أن ينازعه فيه منازع من فلسفة أو من علم، حتى ولو كانت الفلسفة صادقة والعلم ثابتًا.

ولا ريب أن الحصار الدينى، أو بالأدق أن الحصار بإسم الدين كان قد بلغ ذروته فى أوروبا فى تلك العصور. وعندما يقوم الإنفعال الدينى بفرض حصاره على العقل فإنه يكون من المحال على العقل أن يبحث فى روية فى طبيعة الإنسان أو فى حقيقة قدره ومصيره، أو فى حقيقة النواميس الطبيعية التى تهيمن على سير ركب الحياة... وتكون كل محاولة فى هذا الشأن مطبوعة بروح الإنفعال لا بمنطق العقل، وشتان بين هذين الأسلوبين اللذان يمثل أولهما أسلوب الغلو والإرتجال، ويمثل ثانيهما أسلوب التأنى والإعتدال. وبمقدار ما يحاول أولهما الإرتباط بالنصوص بمقدار ما يفلح فى تشويه الحقائق، وذريعته الوحيدة هى أنه أكثر ارتباطًا بالنصوص مع أنه قد يكون فى واقع الأمر على النقيض منها تمامًا.

ثالثًا: أن عقيدة العودة للتجسد شأنها ـ شأن سائر موضوعات الروح ـ إذا نظرنا إليها من الناحيتين العلمية والفلسفية وجدنا إنها عميقة المعانى بعيدة الأطراف تتطلب الإلمام بنواح كثيرة من فلسفات ومن علوم شتى. وعقيدة هذا شأنها من المستحيل أن تتسع آفاق كل إنسان لدراستها فى كافة جوانبها، ثم لهضمها وتمثيلها، والإفادة مما ترتبه من نتائج فلسفية وعلمية مفرطة فى خطورتها.

رابعًا: إن التمسك بصحة جميع المفاهيم المتوارثة هى السمة المميزة لأرباب المذاهب فى كثير من الأمور، ولرجال العلم أيضًا. فإن من خصائصهم مقاومة كل كشف جديد مهما كانت عناصره واضحة وثابته. وهذا التشبث بالقديم تعلو درجته كلما علت درجة الكشف الجديد فى عمق المفهوم وخطورة النتائج.

إذن ـ فلم يكن اذن قرار «مجمع القسطنطينية» بكل ما لابسه من مقدمات

معروفة استفرضتها مسبقًا، وما شمله من مضمون واه، هو العقبه الوحيدة والحقيقية فى وجه تقبل الإعتقاد بالعودة للتجسد فى الغرب بمقدار ما كان هو هذه الإعتبارات التى أسلفناها. كما لم تكن العقبة ـ من باب أولى ـ هى نصوص الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، بما فيه من دلالات واضحة ـ وفى كثير من الأحيان حاسمة ـ إلى جانب صحة هذا الإعتقاد، لا إلى جانب بطلانه كما زعموا خطأ. والدليل على ذلك أنه إذا كان السواد الأعظم من رجال الإعتقاد قد وقف فى الغرب فى وجه إنتشار هذا الإعتقاد بلا بحث ولا دراسة ـ كما هى الحال فى كثير من الحالات ـ فإن هناك عددًا ممن يعدون فى الذروة بين آباء الكنيسة الأولى، وواضعى أسسها اللاهوتيه، أو الخلقية، أو الفلسفية، وممن عرف عنهم التفكير المنطقى المترابط والفهم الصحيح لأمور الإعتقاد، وقد إعتنقوا هذه العقيدة ودافعوا عنها. ولعل مما شجعهم على ذلك أيضًا أنه بحسب بعض تعاليم الإعتقاد حتى الحرفى تمضى حقبة طويلة جدًا بين الفترة التى تلى الموت مباشرة والحساب الأخير الذى يحدد بحسب هذه التعاليم المصير النهائى للروح بين الجنة، أو النار، أو المطهر. وإلى أن يحل وقت الحساب الأخير من الجائز بحسب هذه التعاليم نفسها أن يحدث تغير فى تطور الروح.

إذن ماذا تصنع الروح خلال تلك الحقبة الطويلة التى ينبغى أن تمضى؟ من الجائز أن يقال إنها تكون عرضة للتجسد المتكرر من جديد على الأرض حتى تحصل على المزيد من التطور. وتعطى أكثر من فرصة للتطهر من خطاياها إلى أن يحل موعد حسابها الأخير. وليست هذه العقيدة الأخيرة هى بالضبط عقيدة علم الروح الحديث، لكن يمكن بلا أدنى ريب التوفيق بين العقيدتين فى ضوء الحقائق العلمية الحديثة خصوصًا إذا تركنا جانب أسلوب التشبث بالفهم القديم لمجرد قدمه، ولرسوخه فى الأذهان وفى الوجدان وتركنا معه أسلوب التشبث بالصور الحرفية أو الرمزية للثواب والعقاب.

وعلى أية حال، لقد وجدت عقيدة العودة للتجسد الأرضى ـ بالمفهوم المحدد المستقل تمامًا عن مفهوم «التناسخ» أو «تقمص أرواح الحيوانات

والنباتات» ـ من يتبناها بين عدد من صفوة المفكرين الدينيين فى الغرب. ولم يدر بخلدهم مطلقًا أنهم بموقفهم هذا قد خالفوا أصول عقائدهم الدينية. كما لم يدر ذلك بخلد أحد من شراحهم، أو أتباعهم.

تطور مفهوم التجسد فى المسيحية والغرب عمومًا

موقف آباء الكنيسة الأوائل

إن عددًا من أبرز آباء الكنيسة اللاتينية وفلاسفتها قد إتجه ـ رغم عمل المقاومة الضاربة ـ إلى إعتناق مبدأ العودة للتجسد، ونذكر منهم بوجه خاص وبالترتيب التاريخى:

ـ الأسقف سينوسيوس: الذى كان أسقف لأبروشية البطالسة ببلاد اليونان، وكان فيلسوفًا، وخطيبًا، وشاعرًا رائعًا (٣٧٠ وتوفى حوالى ٤١٣م).

ـ سان جيروم: وهو من أبرز فلاسفة الكنيسة الغربية وهو الذى ترجم الأناجيل إلى اللغة اللاتينية، وله مؤلفات عديدة فى الدين، والتاريخ الدينى والآداب (٣٣١ وتوفى حوالى ٤٢٠م).

ـ سانت أوغسطين: وهو أبرز فلاسفة الكنيسة اللاتيني قاطبة (٣٥٤ ـ ٤٣٠م) وكان أسقف لأبروشية هيبون وينسب إليه صياغة العقيدة المسيحية فى صيغة فقه بمؤلفاته العديدة التى منها «مدينه الله» و«الاعترافات»: «ألم أولد فى جسد آخر، أو فى مكان آخر قبل دخولى فى رحم أمى؟»، وإذا تساءل سانت أوريجين: «ألم يكن طبعًا للسبب أو للمبرر فقط أن كل روح إنما تدخل فى جسد لأسباب مؤكدة وغامضة، ويكون دخولها هذا طبعًا لاستحقاقها وأفعالها السابقة؟» كما يميط القديس جيروم اللثام عن ذلك بقوله: «إن عقيدة تعدد الحيوات كانت تدرس كسر من أسرار الدين الخفية يعرفه الإنسان عن طريق الوحى وحده، ولا يستطيع مع ذلك أن يفهمه فهمًا كاملًا».

موقف كبار الفلاسفة والمفكرين الغربيين فى العصر الحديث من معتقد التجسد

ذكر الأستاذ نبيه القاضى فى كتابه «التقمص» أن كثير من الفلاسفة والعلماء الغربيين أمنوا بالتقمص وهم:

- جيوردانو برونو ١٥٤٨ ـ ١٦٠٠ Giordano Bruno: كاهن وفيلسوف وكان يتفق مع من يقول، إن الروح لا توجد بدون جسد. عمل أستاذًا فى أوكسفورد، معلمًا حول خلود الروح والتقمص. وحكم عليه عام ١٦٠٠ بالحرق فى البندقية بتهمة الهرطقة.

- هليوت ١٦١٨ ـ ١٦٩٩ F.M.V Helmont: عالم وفيلسوف بلجيكى، نشر كتابًا فى بريطانيا عام ١٦٨٤ بعنوان: مائتا سؤال مقترح بخصوص عقيدة الروح الإنسانية، حكم علية بالسجن فى روما، عام ١٦٦٢ لتعليمه التقمص ومذهب الحلول.

- اسبينوزا ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧ B. Spinoza: فيلسوف ومفكر دينى هولندى، أجاب على السؤال، لماذا لا نتذكر حيواتنا السابقة قائلًا: ليس من المستحيل أن نتذكر أننا كنا عائشين قبل التجسد ـ أكد دور العقل والأخلاق وما وراء الطبيعة. إتهمه الكثيرون بالإلحاد.

- لايبنز ١٦٤٦ ـ ١٧١٦ Leibniz: وهو فيلسوف ورياضى ألمانى، إعتقد أن كل الأرواح قد وجدت بشكل دائم فى جسد منظم، وإن إستمرارية الحياة للإنسان، لن ترى بعد ذلك منقطعة بالموت بل بالمنام.

- سويدنبورج ١٦٨٨ ـ ١٧٧٢ E. Swedenborg: وهو عالم سويدى، كان من أعلام اللاهوت، وخبيرًا فى المعادن والمناجم، ولمع فى علم النفس والعقل والروح، ومن مؤلفاته الروحية: أسرار السماء، الجنة والنار، الحكمة الملائكية للحب الإلهى، علاقة الروح بالجسد، المذكرات الروحية واليوميات الروحية، وكتبه كلها كتبها باللاتينية.

ـ بنيامين فرانكلين ١٧٠٦ ـ ١٧٩٠ B. Franklin: وهو عالم ومخترع وكاتب سياسى، كتب بشكل ملائم بالرغم من كل العراقيل فى الحياة الإنسانية، لا يمنع من إصدار نسخة ثانية من الشخص نفسه، على أمل أن يصحح الأخطاء الموجودة فى الأولى.

ـ عمانوئيل كانت ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤ E. Kant: فيلسوف ألمانى، له كتابان: نقد العقل النظرى، ونقد الحكم العقلى، وذهب فيهما إلى القول، بأننا لا ندرك ماهية الأشياء بل ظواهرها الحسية فى المكان والزمان. كان يعتقد أن الأرواح موجودة من قبل، وإنها تذهب إلى كواكب أخرى بعد وفاتها، لتتقمص هناك. إستنتج من القانون الأدبى وجود الله والحرية وخلود الروح.

ـ فان هارد ١٧٤٤ ـ ١٨٠٣ Van Herder I.G: كان يعتقد أن الرجال العظام والنادرين، لا يمكن أن يكونوا قد وصلوا إلى هذه المكانة فى جيل واحد، وإن ذكريات الحيوات السابقة عند البعض منهم، تعنى أن يميزوا بالواقع منظرًا أكثر شمولية من الآخرين وأن الأطفال يقترحون أفكارًا ما كان لها أن تأتى إلا بعد تحضير طويل.

ـ شوبنهاور ١٧٨٨ ـ ١٨٦٠ A. Shopenhauer: فيلسوف ألمانى، إهتم كثيرًا بدراسات الفلسفة الهندوسية والبوذية والعرفان الباطنى. أمن بفكرة التطور من خلال التقمص فى أجساد جديدة أفضل من السابقة. كان أحد الرواد بين الكتاب الغربيين فى قبوله لفكرة التقمص الجماعى.

ـ جيته ١٧٤٩ ـ ١٨٣٢ Geothe: فيلسوف ألمانى، قال فى هذا المضمار: أننى متأكد أنى قد كنت هنا من قبل، كما أنا الآن، الآف المرات، وأمل أن أعود الآف مرات أخرى.

ـ هيل ١٧٨٠ ـ ١٨٢٦ J.P.Hebel: شاعر وكاهن ألمانى قال: قد عشنا من قبل والحكمة هى ثمرة التجربة، كونى إجتزت عددًا من الرحلات، محافظًا على أناى من خلال مجموعة حالات وأشكال.

ـ تايلور ١٧٥٨ ـ ١٨٣٥ T.Taylor: قال إن الروح تمر بمراحل تصاعدية لاهوتية، وبمنفى قياسًا لمصدرها الروحى.

ـ فورييه ١٧٧٢ ـ ١٨٣٧ F.Fourior: مؤسس الإشتراكية، من الذين ينظرون إلى التقمص بتفاؤل، ويعتقد أن كل واحد منا تنتظره حيوات كثيرة، بعضها فى هذا العالم، والأخرى فى كوكب أكثر سموًا، وجسد أكثر لطافة، وحواس أكثر رهافة.

ـ بلزاك ١٧٩٩ ـ ١٨٥٠ H.de.Balzac: روائى فرنسى، كان مقتنعًا بالتقمص، وإن الناس يعيشون بدخول الروح، ثم تتبع حيوات أخرى، حيث يجب أن نعيشها لنصل إلى مكان النور.

ـ فيكتور هوجو ١٨٠٢ ـ ١٨٨٥ V.Hugo: روائى فرنسى، قال كل مرة نموت فيها، نربح حياة أخرى، أن الأرواح تعبر من كرة إلى أخرى، دون أن تفقد شخصيتها، تظهر أكثر وأكثر سطوعًا. كان يقول: «عندما انزل إلى القبر، أستطيع القول، لقد أكملت أيام عملى، ولكن لا أستطيع القول، لقد انتهت حياتى. إن عملى اليومى سيبدأ من جديد فى الصباح التالى».

ـ كير كيجارد ١٨١٣ ـ ١٨٥٥ S.Kierkegaard: فيلسوف ومفكر دينى دانماركى، عبر عن فكرته كالتالى: سأله النبى لمن تكتب؟ أجابه الصوت: للأموات الذين أحببتهم فى القدم. هل سيقرأوننى؟ أجاب النبى: نعم لأنهم سيعودون لاحقًا.

ـ تولستوى ١٨٢٨ ـ ١٩١٠ L.Tolstoi: قال أن احلام حياتنا الحاضرة، هى البيئة التى فيها شكلنا انطباعاتنا وأفكارنا وشعورنا من حياة سابقة، وحياتنا ليست إلا أحلامًا لحياة أكثر واقعية، وهكذا لا نهائية، إلى أن نصل إلى النهاية إلى الحقيقة، حياة الله. وغيرهم كثيرين لا يتسع المقام هنا لإستعراض أفكارهم المرتبطة بإيمانهم بمبدأ التجسد والتقمص.

• مفهوم الروح فى الإسلام

عندما بعث النبى ﷺ فى قومه وأعلن النبوة ذهب بعضهم إلى اليهود يسألونهم فى أمر يمتحنون به هذا النبى فطلبوا منهم أن يسألوه فى أمر لم يخبر به أى نبى من قبله وهو الروح. فلما سئل الرسول فى ذلك أمهلهم حتى يأتيه فإذا بالقرآن يرد عليهم: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥). والمعنى العلمى لهذه الآية أن الروح أمر يصعب على البشر أن يفهموه لأنه أكبر من علمهم وعقولهم ومهما أوتى الإنسان من العلم لن يفهم حقيقية الروح، وهذا هو السر فى هذا الرد المقتضب حتى لا يقع الناس فى البلبلة والظنون وينشغلوا عن الدعوة الجديدة بأمور فلسفية. وقد ذهب المفسرون بعد ذلك إلى شتى التفاسير، فمنهم من قالوا: إن هذا الرد معناه نهى المسلمين عن الدراسة والعلم بهذه القضية، بينما ذهب الأكثرية بأنها لم تنص على القول: (قل الروح من علم ربى) بل نصت: (من أمر ربى)، والفارق بينهما كبير وواضح ومن هنا فلم يتوقف علماء المسلمين عن الكتابة والدراسة فى هذا الموضوع، من ذلك كتاب (الروح لأبن سينا) وكتاب (الروح لأبن القيم) وعشرات الكتب على مر العصور.

• إنتقال الروح عند العرب

إعتقد العرب الجاهليون برجعة الإنسان إلى العالم الأرضى بعد الموت، وقالوا أن الميت يرجع إلى هذه الدنيا مرة أخرى، ويكون حيًا، كما كان يوجد عند العرب القصص والروايات التى تؤكد أن العرب الجاهليين إعتقدوا بالمسخ من ذلك ما قاله بعض أهل الأخبار عن «اللات» من إنه كان رجلًا يلت السويق عند صخرة بالطائف فلما مات قال لهم «عمر بن لحى» أنه لم يمت ولكنه دخل الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وبنى بيت عليها يسمى «اللات». وما رواه العرب أيضًا عن إساف ونائلة أنهما كانًا رجلًا وإمرأة عملًا عملًا قبيحًا فى الكعبة فمسخًا حجرين. كما آمن العرب بالتناسخ على مختلف أشكاله وكان أثر التناسخ كبيرًا على بعض الفرق الإسلامية، فقد قال أحمد بن خابط وأبو مسلم الخراسانى

بالتناسخ، كما إعتقد القرامطة ومحمد بن زكريا الرازى، وكانوا يعتقدون أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجساد أخرى وإن لم تكن من نوع الأجساد التى فارقت. وتعتبر «الجناحية» من الفرق الأوائل التى آمنت بالتناسخ ويظهر فى ابحاث بعض المؤرخين أن هذه الفرقة قد إعتقدت بالنسخ والمسخ. وممن أيد قضية «التناسخ» من المسلمين القرامطة فى العراق والشام واليمن. ومنهم أيضًا «عبد الكريم بن ابى العوجاء» المتوفى عام ٧٧٢م والتابعين له. ويعتبر «أحمد بن خابط» المتوفى عام ٨٤٦م زعيم هؤلاء التناسخيين وكان يقول ان الله تعالى خلق الخلق فى أبدان صحيحة وعقول سليمة فى دار نعيم ليست هى الدنيا، وخلق فيها معرفته والعلم به وأسبغ عليهم فى هذه الدار نعمه. فمن أطاعه فى كل ما أمر به من التكليف أخره، ومن عصاه أخرجه منها إلى النار وهى دار العذاب الدائم. أما من أطاعه فى بعض ما أمر به وعصاه فى البعض الآخر فإنه يخرجه إلى الدنيا ويلبسه فيها بعض هذه الأجسام التى هى قوالب كثيفة للروح ويبتليه بالشدة والآلم لبعض عصيانه، أو الراحة والمتعة لبعض طاعته عن طريق التجسد فى صور مختلفة من صور الناس والحيوانات على إختلاف أنواعها، وبالقدر الذى كانت عليه معصيته فى دار النعيم الأولى، فمن كانت معاصيه أقل وطاعته أكثر كانت صورته فى الدنيا أحسن، ومن كانت طاعته أقل ومعاصيه أكثر صار قالبه فى الدنيا أقبح. ولا تزال الروح فى هذه الدنيا تتنقل فى قوالب وصور مختلفة ما دامت الطاعة مشوبة بالذنوب.

وكان عبد الله بن سبأ يردد القول برجعة النبى محمد ﷺ استنادًا منه إلى الآية الكريمة رقم ٨٥ من سورة القصص ونصها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. ويقول الباحث الدكتور حسن إبراهيم حسن أن مذهب «تناسخ الأرواح» (وهو خروج الروح من الجسد وحلولها فى جسد آخر) نشأ فى الإسلام من فكرة الرجعة هذه. وقد تعرض المفسر المعروف «محمد محمد عبداللطيف» لهذا الموضوع بمناسبة شرحة للآيتين الكريمتين ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠ ـ ٦١).

يقول ابن الخطيب: «وما نحن بمسبوقين» أى بعاجزين على أن نبدل أمثالكم، أى نخلق غيركم من جنسكم بعد مهلككم. وننشئكم أى نشأة أخرى. «فيما لا تعلمون» أى خلق شئنًا وأية نشأة أردنا. ثم يقول: يؤخذ من هذه الآية أن الإنسان قد يخلق بعد موته فى خلق ادنأ من خلقته، وأحط من طبيعته تأديبًا له وتعذيبًا، كما أنه يجوز أن يخلق فى خلق أعلى من خلقه وأشرف من جنسه تعظيمًا له وتكريمًا. وهذا القول يعارضه الأكثرون تحرزًا من القول بتناسخ الأرواح.

ومن الواضح إن ابن الخطيب يشير إلى معارضة الأكثرين للقول بتناسخ الأرواح، بمفهوم إحتمال عودة روح الإنسان فى جسد حيوان بين إحتمالاتها الأخرى. فإذا نفينا هذا المفهوم، وعلى النفى أجمع باحثين الدراسات الروحانية كلهم، فلا يتبقى سوى إحتمال عودة الإنسان للتجسد فى صورة إنسان جديد، وهذا مفهوم مختلف عن ذلك تمامًا، ويلئم تمامًا مع صريح نص هذه الآية، وغيرها من الآيات الكريمة التى أوردناها فيما سبق.

اعتقاد الدروز بالتناسخ

يعتقد الدروز بالتناسخ أو التقمص كما يسمونه، ومعناه عندهم إنتقال النفس من جسم بشرى إلى جسم بشرى آخر. والجسم قميص للروح التى لا تموت أبدًا بل تتقمص أجسامًا أخرى فى كل نقلة، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد ونفس المشرك إلى مشرك. ومن هنا زعموا أن عدد سكان العالم غير قابل للزيادة ولا النقصان منذ بدء الخليقة، ويبقى على هذه الحال إلى الأبد فهم لا يزيدون ولا ينقصون وكل من مات إنتقلت روحه إلى جسد جديد دائمًا. ولا يؤمن بيوم القيامة، فلا حساب ولا جزاء ولا ثواب ولا عقاب فى الحياة الآخرة، وإنما يتم ذلك كله فى الدنيا عن طريق التقمص وما تلاقيه الروح فى تقمصها من النعيم أو عقاب، إلا إنهم ينتظرون يومًا يجئ الحاكم فى صورة ناسوتية مرة أخرى، ويدين له كل أهل الأديان بالتوحيد والطاعة كما يزعمون، يخرج من بلاد مصر أو من بلاد الصين من سد الصين العظيم، وحولة قوم يأجوج ومأجوج، القوم الكرام أو المؤمنين بالحاكم كما يسمونهم. ومفهوم التناسخ عند الدروز هو

الإعتقاد بأن الأجساد تبلى وتبقى الأرواح لتنتقل من جسد إلى آخر فى سلسلة طويلة لا نهائية. ويؤمن الدروز بأن الإنسان عندما يموت فإن روحه تخرج منه وتحل فى جسد مولود جديد، وإن كان الإنسان صالحًا فروحه تنتقل إلى جسد إنسان صالح، وإن كان فاسدًا فإن روحه تنتقل إلى جسد إنسان فاسد وإن ظل على فساده فى الجسد الجديد تنتقل روحه إلى جسد حيوان أو حشرة (قريب من معتقد التناسخ عند الهندوس).

يؤمن الدروز أيضًا بأن الروح تنتقل من الجسد الميت إلى الجسد المولود فى ذات اللحظة بسرعة البصر، وإن روح الذكر الميت تحل فى روح الذكر المولود، وكذلك روح الأنثى الميتة تحل فى جسد الأنثى المولودة.. وهذا ما يعرف بعقيدة التقمص عند الدروز وملخصها كما يقولون: أن الجسد مجرد قميص للروح، أو عربة تمتطيها الروح طيلة حياة الإنسان المقدرة له من الخالق، وإنه فى حالة عدم صلاحية هذا الجسد لبقاء الروح فيه سواء بالشيخوخة أو المرض أو القتل، تخرج الروح، ويتحلل الجسد إلى عناصره المكون منها وإن الروح تحل فورًا فى جسد طفل آخر ساعة الولادة ليعاود حياة أخرى، وإنه قد تبقى الآف السنين تتقلب من جسد إلى جسد حتى تنضج روحيًا وتصبح خيرة تمامًا، وهنا لا تعود إلى الأرض بل تلتحق بالأرواح الطيبة فى الأعالى...

أدلة الدروز على التناسخ

- النفوس عددها محدد منذ بدء الخليقة تتناسخ حتى تكفى ملايين الأجساد.
- من الحكمة أن تظل الروح فى الأرض فترة طويلة جدًا حتى يتم إختبارها لأن عمر الإنسان (من ٦٠ ـ ٧٠ سنة) لا يكفى للإختبار.
- الذى يولد أعمى أو أعرج أو أبرص أو مختل عقليًا إنما هو روح خبيثة ظالمة حلت فى هذه الأجساد كعقاب من الله وإلا نسب الظلم لله.
- قصص عن أطفال ورجال وسيدات حكوا حكايات عن حياتهم السابقة فى مدن أخرى.

• الأحلام واللحظات التى تمر بالإنسان ويشعر أنه عاشها من قبل.

أدلة بعض العلماء وفقهاء المسلمين من آيات القرآن الكريم على التجسد والتناسخ:

• استنادهم إلى مسخ بنى إسرائيل.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة ٦٥ ـ ٦٦).

• ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة ٦٠ ـ).

• ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ (الأعراف ـ ١٦٦).

• يستندون لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ (الفجر ٢٧ ـ ٣٠)، فزعموا أن ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ أى بمعنى تنقلى فى عبادى..

• ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة ـ ٢٨).

• ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر ـ ١١). وأيما كان من شأن اختلاف المفسرين حول مفهوم الموت الأول، وهل هو النطفة قبل بث الروح فيها أو هو الإنسان بعد موته والإختلاف حول مفهوم الحياة الأولى وهل هى حياة البرزخ بعد الموت أو حياة الدنيا بعد القدم، فإن الآية الكريمة تحتاج إلى تفسير محايد لمعانيها العميقة.

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ (الحج ـ٦٦).

• ويستدلون بحادثة غرير التى يعتقدون إنه من خلالها يمكن الإستدلال بها على تناسخ الأرواح.. يقول تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة ـ ٢٥٩).

• ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم ـ ١٩).

• الآيات الخاصة بخلق الإنسان والتى يقولون أنها تشير بصراحة لوجود حيوات سابقة للإنسان على حياته الأرضية: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ (سورة مريم ـ ٦٧).

• يقولون أن آيات القرآن الكريم تفيد وجود خلق أكثر من مرة للإنسان مما يؤكد ويساند هذا الرأى وذلك من مثل النص الشريف ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (سورة فصلت ـ ٢١). فذكر القرآن الكريم للخلق أول مرة، إنما يفيد وجود أكثر من خلق وهذا الخلق الآخر المقصود غير قيام الإنسان يوم القيامة كما يؤكدون، إذ أن القرآن الكريم لم يطلق على قيام القيامة بالخلق إنما أطلق عليه البعث فى مثل النص الشريف ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (سورة المؤمنين ـ ١٦).

• ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة يونس ٣٤).

• ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (سورة طه ـ ٥٥).

- ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (سورة الروم ـ ١١).
- ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة التوبة ـ ١٠٥).
- ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الواقعة ـ ٦٠، ٦١).
- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ (سورة الإنفطار ـ ٦، ٨).
- فلا غرابة بعد كل هذه الآيات الواضحة أن نجد عددًا من أبرز فلاسفة الإسلام والعرب الأوائل ـ شأنهم شأن فلاسفة المسيحية الأوائل ـ لم يفتهم الحديث عن موضوع «وجود سبقى» للروح قبل أن تولد على الأرض وهو إعتقاد يمثل عنصرًا رئيسيًا فى اعتقاد «العودة للتجسد» ومنهم مثلًا يعقوب بن إسحق بن محمد ابن قيس الكندى.

موقف الكندى من «العودة للتجسد»

هو يعقوب بن إسحق بن محمد ابن قيس الكندى، ولد فى أواخر القرن الثانى من الهجرة، وكان يحمل فى حياته لقب «فيلسوف العرب».

ويذهب الكندى إلى «أن نفس الإنسان جوهر بسيط غير فان، هبط من عالم العقل إلى عالم الحس، ولكنه مزود بذكريات من حياته السابقة. وهو لا يقرر له قرار فى هذا العالم، لأن له حاجات شتى تحول دونها الحوائل الكثيرة فيكون ذلك مثار شعور أليم.. ولا ديمومة إلا فى عالم العقل، فإذا أردنا أن تقر أعيننا بتحقيق ما نصبوا إليه، وألا يسلب منا ما هو حبيب إلى نفوسنا وجب علينا أن نقبل على نعيم العقل الدائم، وعلى تقوى الله، وأن نعكف على طلب العلم وعلى صالح الأعمال».

والأمر الهام هنا كما يقول دكتور رؤوف عبيد فى كتابه عن التجسد أن

الكندى يتحدث عن «هبوط الإنسان من عالم العقل إلى عالم الحس، وإنه مزود بذكريات من حياته السابق». وهذه هى نظرية العودة للميلاد كما فهمها بعض فلاسفة اليونان ثم العرب بعد ذلك.

موقف السهروردى من التجسد

هو شهاب الدين السهروردى الذى كان شيخ الشيوخ فى بغداد (٤٩١ ـ ٥٦٤ ه) وكان من أئمة المتصوفين، ذكر فى كتبه عن التجسد كما ورد فى كتاب الدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر (أصول الفلسفة الإشراقية عن شهاب الدين السهروردى) كما يلى:

«عرض السهروردى عن التجسد فى جميع كتبه إلا أنه كان قلقًا مترددًا فى تقرير موقف ثابت له. فهو يعرض للتناسخ عند أصحاب المذاهب المختلفة، ويذكر أن التناسخ على أنواع: من إنسان إلى حيوان أو من إنسان إلى بدن إنسان آخر، أو من بدن فرس إلى بدن فرس آخر وهذا «التناسخ» فى دائرة النوع الواحد يبدو أنه أوثق إلتئامًا من غيره مع بعض المدارس العلمية الحديثة، وما عداه تنكره جميع المدارس. ثم يذكر أن الشرقيين من حكماء الفرس والهند والصين واليونان كانوا على هذا الرأى، ولكن أرسطو عارض قضية «التناسخ» وهاجمها مهاجمة عنيفة فى نقده لأفلاطون والفيثاغورثية. وجاء الإسلاميون فأقرها كثرة منهم، ودللوا على دعواهم بآيات قرآنية كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾.

ثم يصل السهروردى بعد عرض الأراء المختلفة فى هذا الشأن إلى القول بأنهم متفقون فى ضرورة خلاص النفوس الطاهرة من ظلمات البدن. ثم يقول السهروردى أيضًا: «وطريق خلاص النفوس وتطهرها من آثار الجسد يتعلق بهذه المراتب تعلقًا أساسيًا، إذ أن هؤلاء الكاملين الذين مارسوا الحكمتين العملية والعلمية يصلون إلى عالم الأنوار المجردة، أما هؤلاء المتوسطون فى مرتبة

الكمال فإنهم ينتمون إلى عالم المثل المعلقة وهى قسمان: ظلمانية للأشقياء ومستنيرة للسعداء، وفى المثل المعلقة تبقى نفوس الذين حق عليهم العذاب والذين كتب عليهم نسخ أبدانهم (لاحظ أن الحديث هو عن نسخ الأبدان لا الأرواح) هذا إن صحت قضية التناسخ».

وللقوى الإنسانية عند شهاب الدين السهروردى ثلاث درجات:

أعلاها الروح، وهى متجهة إلى عالم اللامحسوس، ودنياها النفس وهى متجهة إلى عالم المحسوس، وبينهما القلب وهو صالح للإتجاهين: الأعلى والأدنى، فقبل أن يتم نوره يكون إتجاهه موزعًا بين القوتين العليا والدنيا، لكنه عندما تتم إنارته يتجه بكليته إلى الروح فيتصل بالعالم الروحانى، وفى هذه الحالة تنجذب النفس إلى القلب، وعلامة اتجاه النفس إلى القلب هى إحساسها بالهدوء.

ومن مقولات السهروردى المعروفة: «إن من فضائل الصوفية أن يكون الإنسان رحيمًا، وأن يصفح ويحسن إلى من أساء إليه»، وقوله: «لو أحب الناس بعضهم بعضًا وقد رأوا ما فى الإحسان من خير لاستغنوا عن العدالة، إذ أن العدالة أدنى مرتبة من الرحمة، ولا تستعمل الأولى إلا عند غيبة الثانية، وإن من ينفذ أوامر الرحمة أسمى ممن ينفذ أوامر القانون، لأن اطاعة القانون خارجية، أما اطاعة الرحمة فهى داخلية».

موقف ابن الخطيب من التجسد

لقد تعرض المفسر المعروف «محمد محمد عبداللطيف بن الخطيب» لموضوع التجسد بمناسبة شرحه للآيتين الكريمتين ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة الواقعة ـ ٦٠، ٦١).

يقول ابن الخطيب: «وما نحن بمسبوقين» أى بعاجزين على أن نبدل أمثالكم، أى نخلق غيركم من جنسكم بعد مهكللم، وننشئكم أى نشأة أخرى. «فيما لا تعلمون» أى خلق شئنا، وأية نشأة أردنا.

ثم يقول: يؤخذ من هذه الآية أن الإنسان قد يخلق بعد موته فى خلق ادنأ من خلقته، وأحط من طبيعته تأديبًا له وتعذيبًا، كما أنه يجوز أن يخلق فى خلق أعلى من خلقه وأشرف من جنسه تعظيمًا له وتكريمًا. وهذا القول يعارضه الأكثرون تحرزًا من القول بتناسخ الأرواح. (من كتاب أوضح التفاسير ـ لابن الخطيب) وواضح أن ابن الخطيب يشير إلى معارضة الأكثرين للقول بتناسخ الأرواح بمفهوم إحتمال عودة روح الإنسان فى جسد حيوان بين إحتمالاتها الأخرى. فإذا نفينا هذا المفهوم، وقد نفاه معظم الباحثين فى شئون الروح، فلا يتبقى سوى إحتمال عودة الإنسان للتجسد فى صورة إنسان جديد، وهذا مفهوم مختلف عن ذلك تمامًا، ويلتئم تمامًا مع صريح نص هذه الآية، وغيرها من الآيات الكريمة التى أوردناها فيما سبق. كما يلتئم مع إحتمال عودة الإنسان ـ نفسه ـ فى مستوى أعلى وأدنى اجتماعيًا من مستواه السابق، طبقًا لسلوكه، ولاستحقاقه، ولدواعى تطوره وإرتقائه، وكل ذلك يدخل فى قدرة الله تعالى التى لا يحدها قيد ولا حد إذا ما أرادت أن تبدل «أمثالكم وتنشئكم فيما لا تعلمون».

موقف الدكتور مصطفى محمود حديثًا عن التجسد

يكتب المفكر والفيلسوف الكبير المعروف الدكتور مصطفى محمود أكثر من مقال له فى موضوع التجسد. فى أحداها بعنوان «هل كان لنا وجود قبل أن نولد؟» يقول: «يلازمنى إحساس منذ بدأت أعى وأدرك وجودى أننى كنت موجودًا دائمًا، وأنى حقيقة، ولست أمرًا طرأ بالميلاد. إننى كنت هنا أو هناك فى مكان أو لا مكان لست أدرى. إنما هو احساس دائم ومؤكد بالحضور لا أعلم كنهه ومصدره.. وكل ما يحدث أمامى الآن هو مرور شريط متتابع لأحداث متتالية لماضى وحاضر.

وهو شريط يمر أمامى ولكنى فى الأعماق خارج عن هذا الشريط واقف على عتبة حضور مستمر وآنية مطلقة لا تعرف زمنًا.. ويؤيد هذا الإحساس الداخلى حقائق الدين التى تقول بأنى أحاسب وأعاقب وأموت وأنا أتنقل إلى حياة برزخية، ثم بعث، ثم إلى خلود فى نعيم أو خلود فى شقاء..

وبعد أن يسوق الدكتور مصطفى محمود الكثير من الأسانيد الدينية، يقول: ثم لماذا يقول المجرمون يوم إنكشاف الحقائق ساعة البعث وساعة الحساب. ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (غافر ـ ١١)، متى كانت هاتان الموتتان ونحن لا نعلم ولا نرى إلا ميتة واحدة؟؟..

تلك حياة ممتدة اذن.. ووجود ممتد.. له فصول.. فصل بعد فصل وخلق بعد خلق.. لم ننقطع عن الحضور لحظة منذ الأزل، وإنما ظللنا فى إنتقال من حال إلى حال.. ولم يكن أمرًا أبدًا عدمًا معدومًا. الهذا يحدث دائمًا أن نحب أحد دون مقدمات، أو ننفر منه دون مقدمات.. أيكون هذا الشوق لمعرفة سابقة ولقاء سابق قبل الميلاد فى ذلك الغيب الأول.. أهى ذكرى باهتة لتلك النفوس تعارفت وتنافرت وتحابت وتناكرت منذ الأزل.

رفض ابن سينا لفكرة التناسخ

يعد ابن سينا من أكثر فلاسفة الإنسان إهتمامًا بالنفس. فقد صنف لها عدة رسائل وأتى على ذكرها فى كتاب الشفاء والإشارات والنجاة وأدلى ببراهين على وجودها كبرهان الإستمرار والبرهان الطبيعى (السيكولوجى)، وبرهان الرجل الطائر (المعلق فى الفضاء) الذى اعتبره ابن رشيد محض تخيلات. إلا أن مفهوم النفس غير واضح تمامًا عند ابن سينا (ماهية النفس؟ ومن أين جاءت؟ وما علاقتها بالبدن؟ وما مصيرها؟) فهو يرى بأن «المراد بالنفس هو ما يشير إليه كل أحد بقوله: (أنا). ويرى بأن الأنا مغايرة لجملة أجزاء البدن. يبدو مما وصلنا أن مفهوم النفس السينوى أقرب إلى المادية منه إلى الروحانية. لابد أن يكون اشتغاله بالسياسة وصحبته للأمراء قد أثر تأثيرًا كبيرًا على فكره، فغلب عليه الفكر المادى، لاشتغاله أيضًا بالطب (حقل عمله هو الجسم المادى الجرمى)، وقد غلب اشتغاله بالسياسة على اشتغاله بالطب. وقد رأى الغزالى بأن فلسفة ابن سينا مليئة بالإلحاد وبأن تصوفه ليس إلا ستر لهذا الإلحاد، وفى هذا إشارة إلى ماديته. فكان ابن سينا يرد على من يتهمه بالكفر والزندقة بقوله:

«إن تكفير مثلى ليس بالأمر الهين، ولا يوجد إيمان أقوى من إيمانى، أنا وحيد دهرى وأكون كافرآ؟؟ إذن لا يوجد فى العالم كله مسلم واحد».

يشير ابن سينا فى قصائده إلى أن النفس العاقلة هبطت من أعلى إلى أدنى، من أعلى، من عالم الروح إلى عالم المادة. ولكن ابن سينا لم يكن يؤمن بوجود النفس قبل البدن. وعليه فإنه كان يقصد بهبوط النفس هو إتصالها بالبدن. ويشير أن النفس دخلت الجسم كارهة وتخرج منه كارهة لإنها ألفته وأنست به. ويتساءل ابن سينا فى إحدى قصائده لماذا هبطت النفس من أعلى إلى حضيض المادة. فإذا كان الهدف هو الحصول على معرفة من أجل الكمال، فلماذا تغادر الجسد قبل بلوغ المعرفة وقبل سد ثغرات جهلها.

أما بالنسبة للتجسد والتناسخ، فيميل ابن سينا إلى نفى التناسخ إذ يرى بأن الزمان قطع على النفس طريقها نحو الكمال فغابت من حيث طلعت قبل أن ترفع ثغراتها. ويقول أيضًا: «أن كل بدن يستحق حدوث مزاجه مع حدوث نفس له وليس بدن يستحقه وبدن لا يستحقه، إذ اشخاص الأنواع لا تختلف فى الأمور التى بها تقوم. فإذا افرضنا أن نفسًا تناسختها أبدان، وكل بدن فإنه بذاته يستحق نفسًا تحدث له تتعلق به، فيكون البدن الواحد فيه نفسان معًا. ثم العلاقة بين النفس والبدن ليست هى على سبيل الإنطباع فيه، كما قلنا، بل علاقة الإشتغال به حتى تشعر النفس بذلك البدن، وينفعل البدن عن تلك النفس. وكل حيوان فإنه يستشعر نفسه نفسًا واحدًا، هى المصرفة والمدبرة للبدن الذى له. فإن كان هناك نفس أخرى لا يشعر الحيوان بها ولا هى بنفسها ولا تشتغل بالبدن فليست لها علاقة مع البدن، لأن العلاقة لم تكن إلا بهذا النحو، فلا يكون تناسخ بوجه من الوجوه».

إن أحد براهين ابن سينا على وجود النفس هو برهان الإستمرارية، أى إستمرارية وعى الإنسان بذاته خلال حياته، حتى وإن تغير بدنه. يقول فى رسالة فى معرفة قوى النفس الناطقة: «تأمل أيها العاقل فى إنك اليوم فى نفسك هو الذى كان موجودًا فى جميع عمرك، حتى إنك تتذكر كثيرًا مما جرى من

أحوالك، فأنت إذن ثابت مستمر لا شك فى ذلك. وبدنك وأجزاؤه ليس ثابتًا مستمرًا. فتعلم نفسك إنك فى مدة عشرين سنة لم يبق شيء من أجزاء بدنك، وأنت تعلم بقاء ذاتك فى هذه المدة، بل فى جميع عمرك، فذاتك مغايرة لهذا البدن وأجزائه الظاهرة والباطنة».

فالإنسان، بحسب هذا البرهان، يعى بأنه هو اليوم نفسه البارحة. وهذا البرهان إذا سحبناه وطبقناه على النفس العليا (الروح) فإنه يعد برهانا على العودة للتجسد. فقياسًا على هذا البرهان، يمكن القول، لإيضاح فكرة التقمص عند المؤمنين بها، بأن النفس العليا تعى إستمراريتها فى أكثر من تجسد مثلما تعى النفس الدنيا إستمراريتها فى أكثر من يوم وسنة فى التجسد الواحد. ويرى ابن سينا بأن النفس جوهر قائم بذاته مستقل عن البدن ومذهبه فى الإنسان «إثنينى»، أى أن الإنسان مركب من جسد ونفس كل منهما يؤثر فى الآخر. وقال بحدوث النفس، أى تحدث بحدوث الجسد. وقال أيضًا بخلودها لأنها ذات روحانية غير مركبة وكونها صورة للجسد لا يعنى إنها تفسد بفساده. وقسم النفس إلى: النفس النباتية (التى تقوم بوظيفة النمو والتوالد والتغذية وهى موجودة فى النبات والحيوان والإنسان) ـ والنفس الحيوانية (والتى تدرك الجزئيات وتتحرك بالإرادة وهى موجودة فى الحيوان والإنسان) ـ والنفس الإنسانية (الناطقة التى تدرك الكليات وتمارس وظيفتها بالإختيار الفكرى).

كما يرى ابن سينا بأن النفس حادثة وخالدة، وفى هذا تناقض، فكل ماله بداية له نهاية. فهو يقول بأن الوجود صفة ذاتية للنفس، فمن غير الممكن أن يكون الفناء صفة ذاتية لها أيضًا، لأنه من غير الممكن أن تشتمل على أمرين متناقضين. ولكن كونها حادثة يعنى إنها لم تكن موجودة مسبقًا، ويعنى أيضًا أن الوجود ليس صفة ذاتية لها. ولهذا، ينتقد ابن رشيد بشدة ابن سينا لقوله بحدوث النفس حدوثًا حقيقيًا مع قوله ببقائها.

ويعتبر ابن سينا علم النفس جزءًا من العلم الطبيعى ويرى أن النفس والجسم عنصران لجوهر واحد متحدان إتحادًا جوهريًا. كمادة الصورة والهيولى والعلاقة

بينهما تفاعل، فهما وجهان لعملة واحدة فى نظره. وبهذا، فالنفس، عنده تقابل إلى حد ما الشخصية الفانية (بإستثناء الجسم المادى). وقد برر ابن سينا رفضه للتقمص والتناسخ بإنه يخالف صريح الإسلام من أن كل نفس بما كسبت رهينة وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ولكن حقيقة أن ابن سينا خالف الإسلام فى كثير من الأراء أهمها قوله بأزلية المادة وخالفه أيضًا فى سلوكه الشخصى. فضلًا عن أن التقمص لا يخالف الآيتين السابقتين بل يؤكدهما. لكن ربما كان رفض ابن سينا للتقمص يعود إلى عدة أسباب منها:

- تأثرة بعقيدة الإسماعيلية التى سارت على خطى المسيحية كما سبق أن أوضحت فى الغائها للتقمص.
- تأثره بالمادية.
- عدم توفر الإمكانية والوقت والرغبة لديه للتعمق فى عقيدة التقمص الموجودة فى العقائد الأخرى.
- نظرًا لقضائه معظم وقته فى صحبة الملوك والأمراء.

إن تعريف التناسخ بأنه إنتقال النفس من جسد إلى جسد آخر تعريف عام جدًا وغامض جدًا ينقصه الكثير من الدقة. وإذا أخذنا بهذا التعريف التبسيطى للتناسخ فلابد أن نوافق ابن سينا فى رفضه للتناسخ. وحتى كلمة «نفس» كلمة غامضة ولها حقل دلالى واسع جدًا. فإذا إفترضنا أن النفس هى كل ما ليس بجسد مادى (جرمى) فإن هناك عناصر فى النفس تحدث مع اتصالها بالجسد وتتحلل بعد تحلله وهناك «عناصر» أخرى ترحل لتبحث عن تجسد جديد.

والذاكرة هى من «العناصر» التى لا تنتقل مع الروح الفردية إلى التجسد التالى وإنما تتلاشى بعد تلاشى الجسم المادى. إن ما يرحل إلى التجسد التالى هو محصلة الأعمال أو الرصيد الكارمى أو الدين غير الموفى. وما لدين إلا طريقة لسداد الدين. ولذلك ينسى الإنسان تفاصيل تجسداته السابقة، كما لمح القرآن الكريم إلى ذلك: «ولقد عهدنا إلى آدم (الإنسان العاقل) من قبل (فى الماضى)

فنسى ولم نجد له غرمًا». مع أن الله قد أبقى فى حياة الإنسان الجديدة علامات من حياته الماضية مؤكدًا القرآن ذلك: «ولقد تركناها آية فهل من مذكر؟!» ـ «وفى أنفسكم ألا تبصرون؟!» أى أن علامات الحياة السابقة وبقاياها مترسبة فى أنفسنا على شكل طباع وصفات وظروف أفلا نرى ببصيرتنا؟! ثم يقول القرآن: «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون؟! وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون. «وإذا أردنا صياغة الآيتين الآخيرتين بصورة صوفية أخرى تقول: «هل نظرت أيها الإنسان نظرة منتبه متذكر معتبر إلى الإنسان الذى يجعل مستوى وعيه على المستوى النجمى الإنفعالى الأهوائى بدلًا من أن ينقل وعيه المستوى الأعمق الروحى، فيتلقى أوامره من شهواته وهواه، إن ذلك الإنسان الذى هبط بوعيه إلى درك الشهوات بدلًا من أن يرتقى به إلى مرتبة الروح لا يهديه الروح حتى لو كان عنده علم، لأنه لم يتخذ الروح دليله، فتعطل الشهوات مقدراته النفسية من سمع (إنتباه) وعقل (وعى) وتشكل أمام بصيرته (عينه الثالثة) حجابًا يمنعه من الرؤية الحقيقية، وعندئذ لا يعود لذلك الإنسان التائه من أحد يدله على طريق الخلاص، لأنه لا هادى إلا الروح. أيها الجنس البشرى، لماذا لا تتذكرون هذه الأمور؟ نسيتم الروح هاديًا لإنكم اتخذتم الشهوات عائقًا. ولكن الذين يتخذون الشهوات إلها يجيبون: «ليس لنا من حياة غير حياتنا الدنيا فلا يوجد عود للتجسد»، ذلك لأنهم نسوا أن لهم روحًا فردية خالدة تتجسد ونسوا القانون الكونى الإلهى ولم يدركوا سوى نفسهم الدنيا أو أنيتهم الشخصية الفانية، إنهم إذا متوهمون».

فلننظر فى أنفسنا لعلنا نتذكر.